خطبة صلاة الجمعة 23/ 8/ 2024 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(حنان الأمهات)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وحَفَدَةً ورَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: 72].

وقال سبحانه في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته**»، قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحسِب النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والرجل في مال أبيه راع وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**».

وأخرج الإمام الترمذي عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي**».

هذه الخطبة الخامسة عشرة في سلسلة خطب عنوانها: (**الحياة الأسرية**)، تتحدث عن أهمية الأسرة وقِيَمِها وطريقةِ بنائها في الإسلام وحقوق وواجبات أفرادها وخطط أعداء الإنسان في هدمها وطرق حمايتها.

عنوان خطبة اليوم: **حنان الأمهات**

ما كنتُ يوماً أتصور أن أحتاج لخطبة أُثير فيها الحنان في قلوب الأمهات أو أغريهن بالعطف على أولادهن والرأفة بهم، ذلك لأن حنان الأم فطرةٌ أودعها الله في قلوب الأمهات كلهن، ولو كنَّ من العجماوات، ولأن شريعة الله زكّت هذه الفطرة ووعدت الأمهات بالثواب الكبير عليها، ولأن نساء هذه البلاد معروفاتٌ برأفتهن الكبيرة وحنانهن الواسع على أولادهن، كتب أحد الفقهاء الأدباء متحدثاً عن أمه يقول: (إني أكتب اليوم عن أمي، ولكن كل واحد منكم سيقرأ فيه الحديث عن أمه هو، مات أبي وتركني مع ثلاثة إخوةٍ ذكور وأختين، كنت أكبرَهم لم أكمل السابعة عشرة، حملت أمي العبء كله، كانت أماً وكانت أباً، لم تجد ما تُدفئ به الدار فأدفأتها بعاطفتها وحنانها، ألا يذكر كلٌّ منا دفء حنان الأم حين كانت تضمّه إليها في الليالي الباردة؟ ما كانت تملك إلا هذه العاطفة وهذا الحنان، ما ترك أبي مالاً في صندوق ولا وديعة في مصرف، فكانت أمي تدبر أمر البيت وتدبر نفقاته وتخيط هي الثياب، عاشت بعده سبع سنوات، ما استمتعَت فيها يوماً بمتعة ولا وجدَت تسلية ولا راحة، كانت تعيش لأولادها، تُطعِمهم من طعامها وتُلبِسهم مما صنعت يدُها، وتحثّني على أن أدارسهم دروسهم وأراجع معهم كتبهم، لأنها لم تكُن متعلمة.

وكانت إذا جاء العيد صنعت بيدها الحلوى التي لا تستطيع أن تشتريها بمالها، وكانت تطبخ بدل الطبخة الواحدة طبخة لكل ولد، تقدّم لكل منهم الأكلة التي يحبها، إدخالاً للسرور عليه، ولو كان ذلك على حساب راحتها وصحتها.

وعدت في يوم أليمٍ إلى الدار فوجدت أمي معصوبة القدم، وإذا هي تُسِرّ في أذني أن في رجلها جرحاً صغيراً من مقصّ سقط عليها، فهممت أن آتي بالطبيب فقالت: لا. لم تُرِد أن أتعب أنا بدعوة الطبيب ولم تحبّ أن تزعج إخوتي بمعرفة الخبر، وهوّنَت من أمره فرأيته هيّناً، ووضعت عليه قليلاً من صبغة اليود ورباطاً.

وأصبحتُ فأوهمتني أن الجرح قد برئ، ولم أعلم إلا بعد حين أنها أمضت ليلها كلَّه ساهرةً لأن الألم لم يكن ليدعها تنام، كانت تدور في الدار يمنعها حبّها أولادَها من إيقاظهم، فهي على ألمها تتعهّدهم واحداً واحداً كأنها تودّعهم.

فلما امتدّ الوجع إلى اليوم الثالث واشتدّ ولم تعُد تستطيع احتماله خبرّتني به، وحاولنا علاجها عند الطبيب ولكن الجرح الشديد تمادى أذاه إلى ساقها كاملةً فتوجهنا إلى المشفى، ودخلت أمي غرفة العمليات وترقبنا خروج الطبيب يبشرنا بسلامة أمي، ولكنه ظهر ينطق وجهه قبل أن ينطق لسانه، يخبر أن أمي لن تخرج إلا محمولة على الأعناق، لقد ماتت أمي!).

وكتب أحد الأدباء متحدثاً عن حنان أمه: (لا أعرف الأمهات كيف يكن، ولكني أعرف أمي كيف كانت، كان حنانها عجيباً كانت إذا مرضتُ ووصف لي الطبيب دواء لا تدعني أجرع منه إلا بعد أن تجرع هي منه، وكثيراً ما كنت أقول لها: «يا أمي كفي عن هذا!»، فتقول: «يا بني إنه قلب الأم» فأقول: «ولكنه عمل لا نفع منه» فتقول: «نعم، ولكن ليطمئن قلبي».

لما نجحت في امتحان الشهادة الابتدائية جاء ابن عمتي مهنئاً، وأشار عليها بأن تكتفي من تعليمي بهذا القدر، لما كنا فيه من العسر، فأبت، فألح فأنكرت ذلك منه وزجرته عن اللجاجة فيه، وأكدت أنها ستعمل لنتعلم إن اضطر الامر إلى ذلك.

وكانت –عليها رحمة الله– تتوخى أن تعفيني من المنغصات وتتجنب أن تُحَمِّلَني الهموم فتستقلَ بها دوني وتتحرى ما يدخل على نفسي السرور ويشيع فيها الغبطة والرضى، ويفيض على البيت الإيناس والبهجة).

أيتها الأخوات الكريمات:

لا غرابة فيما سمعتم فهذه هي الأم التي نعرفها، وقد رفعها الله بحنانها وبرها بأولادها ورعايتها زوجها مكاناً علياً، أخرج الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: جاءتني مِسْكِينَةٌ تَحمِلُ ابنتين لها، فأطْعَمتُها ثَلاَثَ تمْراتٍ، فأعطت كلَّ واحدة منهما تمرةً، ورَفعت إلى فيها تمرةً لتأكُلَها، فَاسْتَطْعَمَتْها ابنتَاها، فَشَقَّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلَها بينهما، فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صَنَعَتْ للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: **«إنَّ الله عز وجل قد أوجبَ لها بها الجنة، وأعتقها بها من النار»**.

إنها رحمة الأم بولدها وحنانها عليه وجزاء الله لها بهذا الحنان وهذه الرحمة.

وأخرج أبو يعلى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**«أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أنه تأتي امرأة تبادرني، فأقول لها: ما لك؟ ومن أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي»**".

إنها شفقة الأم على أولادها وحنوها عليهم وجزاء الله تعالى لها بهذا الحنان وهذه الشفقة.

جاء في الأثر: «لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبي» ذلك أنّ الله تعالى لما أغرق قومه بعد كفرهم، خشيت أم الصبي على صبيها، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلمة فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي.

إنه عطف الأم على أولادها.

أيتها الأمهات الكريمات والأخوات الفاضلات:

دفعني للحديث عن حنان الأم حاجةُ الأسرة الناجحة والأولاد الأسوياء إلى أمّ حنون، لقد بتنا نرى ونسمع قصصاً عجيبة عن قسوة قلب لا رحمة فيه، وعن غلظة فؤاد لا حنان فيه، نسمع عن أمٍ تركت طفلتين بعمر الزهور عند أبيهم ومضت حردانة لبيت أهلها تطلب طلاقاً، لتبقى البنات من دون حانية، ولا راعية.

فأين حنان من عرفنا من الأمهات؟!

نسمع عن أمٍ ولدت بالأمس في المشفى وطلبت أن يتصل أحد بوالد الوليد ليأتي للمشفى ويأخذه فهي لا تريد أن تراه بعد أن طلقها أبوه، ولا تريد أن تضعه على صدرها.

فأين حنان من عرفنا من الأمهات؟!

نسمع عن أمٍ تبقى نائمة في الصباح، بينما يذهب أطفالها الصغار إلى المدرسة ولا يجدون من يقدم لهم طعام الإفطار أو يضع في حقائبهم ما يأكلونه في المدرسة، فيبقون جائعين إلى أن يعودوا أو تمتدُ أعينهم لما في حقائب أصدقائهم من لذيذ الطعام، ولا يجدون من يرتب لهم ثيابهم أو يسرح لهم شعورهم أو يودعهم من وراء الباب. فأين حنان من عرفنا من الأمهات؟!

نسمع عن رجل يدخل بطفله المريض عيادة الطبيب فلما سأله الطبيب عن والدة الطفل أخبره أنها في لقاء مهم مع صديقاتها، ولما سأله عن زمن بداية المرض اتصل الأب بالأم ليسألها فقالت إنها لا تدري ولكن يمكنه الاتصال بالخادمة ليسألها فهي التي تعتني بالطفل عادةً.

فأين حنان من عرفنا من الأمهات؟!

نسمع عن زوجة تقول إنها ليست على استعداد لتضييعِ مستقبلها الوظيفي لصالح رعايتها أطفالها الصغار.

فأين حنان من عرفنا من الأمهات؟!

نسمع عن أم طبيبة حافظة لكتاب الله ألقت بكل أحمال بيتها على بنتها ذات الأحد عشر عاماً لتتفرغ هي لأعمال المسجد والعيادة.

فأين حنان من عرفنا من الأمهات؟!

نسمع عن أم سافرت منذ ثلاث سنوات مع ابنيها إلى بلد أوربي وتركت ابناً لم يتجاوز السنين الخمسة مع زوجها في الشام.

فأين حنان من عرفنا من الأمهات؟!

نسمع عن خطاب غريب عجيب يحدث المرأة عن تحقيق ذاتها خارج أسرتها، ويخبرها بأن خيرها إلى نقص وخير أولادها إلى ازدياد، فلتراعِ نفسها أولاً ثم لتقدم ما تسمح به نفسها لأولادها وزوجها.

كتب الشاعر اللبناني إبراهيم المنذر قصة شعرية مؤثرة تتحدث عن حنان الأم يقول:

أغرى امرؤٌ يوماً غلاماً جاهلاً	بنقوده حتّى ينال به الوطر
قال ائتني بفؤاد أمك يا فتى	ولك الدّراهم والجواهر والدّرر
فمضى وأغمد خنجراً في صدرها	والقلبُ أخرجه وعاد على الأثر
لكنّه من فرط سرعته هوى	فتدحرج القلب المضرج إذ عثر
ناداه قلب الأم وهو معفّر	ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر
فكأن هذا الصوت رغم حنوّه	غضب السماء به على الولد انهمر
فاستل خنجره ليطعن نفسَه	طعناً سيبقى عبرة لمن اعتبر
ناداه قلب الأم كفّ يداً ولا	تطعن فؤادي مرتين على الأثر

فيا أيتها الأمهات الكريمات:

حنانكن على أولادكن ينشئ للمجتمع نشأً سوي الأخلاق سوي الأفعال سوي الطباع، ويرضي ربكم ويفرح نبيكم ويقوي أواصر الترابط في مجتمعكم واذكرن قوله صلى الله عليه وسلم: «**الراحمون يرحمهم الرحمن**» [أبو داود]، واذكرن أن الله أودع في قلوبكن من الرحمة والشفقة ما فيه سبب سعادتكم وسعادة أسركن.

أيها الإخوة:

هذا حديثي لكم عن حنان الأمهات، واذكروا أن الزواج عبادة، وأن الحفاظ على الأسرة دين، وأن دعم الأسر القائمة والقادمة صدقة جارية.

والحمد لله رب العالمين